ابن عبد ربه وكتابه العقد الفريد

بقلم دكتور

عمر شرف الدين

واضح أن هذا البحث يحاول أن يدرس علماً من أعلام الأدب العربي في واحد من آثاره ، ومن ثم فهي محاولة تجمع بين الأديب وأثره المختار .

إنها تقدم الأديب : بيئته ، وحياته ، وشخصيته ، وثقافته ، وآثاره . فمنتاجه المختار : بواعث تأليفه ، وأجزاءه وموضوعاته ، وقيمته ، وأسلوبه . وهنا تؤكد - بوجه خاص - على رؤية نص بعينه على المستويين المضموني والشكلي .

وهكذا تتعدد المنطلقات ، وتتنوع المرتكزات ، فيرحب العطاء وتعظم الفائدة .

ابن عبد ربه :

بيئته :

أرسل موسى بن نصير والي بلاد البربر . من قبل الوليد بن عبد الملك . طارق بن زياد لفتح بلاد الأندلس - هكذا كانت تسمى أسبانيا الإسلامية - وفي سنة ٩٢ هـ تمكن طارق من فتح تلك البلاد وقتل ملكها . . . وخضعت بلاد الأندلس للعرب ، واتخذوا قرطبة عاصمة لهم .

ومن الناحية الجغرافية : فإن هذه البلاد تمتاز بميزات متعددة ، فمناخها داخل فى نطاق مناخ البحر الأبيض المتوسط . ممطر فى الشتاء ، ويمتاز بالاعتدال فى جملته . وتربة الأندلس خصبة للغاية . ليس فيها قفار ولا صحراوات ، تتكون من وديان مستقلة كل واد يخترق نهراً يعرف به ، وتصب بعض هذه الأنهار فى المحيط الأطلسى .

وتكتنف كثيراً من أجزائها جبال شماء ، وهضاب خضراء تجرى فيها المياه ، وذلك ما جعلها غنية بجمال الطبيعة وسحر مناظرها ، وهو الأمر الذى كان له صداه فى تذوق الأندلسيين وسعة خيالهم .

ويهمنا من الدول العربية التى تعاقبت فى حكم بلاد الأندلس على مدى ثلاثة قرون : الدولة الأموية من ١٣٨ - ٢٤٨ هـ ، وكان من أعظم ملوك هذه الدولة : عبد الرحمن الداخل وهو الذى عمر قرطبة ، وبنى بها القصور والمسجد الجامع .

ومن أشهرهم : عبد الرحمن الناصر . أول من تلقب منهم بأمير المؤمنين سنة ٣٠٠ هـ . كان كثير الجهاد والغزو ، ويعد عهد الناصر : العهد الذهبى للعرب فى بلاد الأندلس . نهضت فيه العلوم والمعارف ، وخطب وده ملوك القسطنطينية . فكان بين أمراء الأندلس أشبه بالرشيد بين خلفاء بنى العباس وكان ابنه الحكم الأول يشبه المأمون ، حيث نفقت فى عهده سوق العلم والأدب واتصل به أبو الفرج الأصفهانى وكان فى مكتبته أربعة وأربعون فهرسا[1] .

---

(١) الآداب الإقليمية فى العصر العباسى الثانى الدكتور حامد حفنى ، سلسلة مؤلفات المعهد العلمى . مكتبة العرب بالعجالة ١٩٧٧ م ص ١٢٨ - ١٦٢ ولمزيد من التفصيل راجع تاريخ العرب فى الأندلس لحسن مراد ص ٤ - ١١٥ ، دار الفرجانى بالقاهرة وطرابلس ولندن ١٩٨٤ م

ومن المهم أن نولى إهتماماً بقرطبة . إذ هى مسقط رأس ابن عبد ربه . على أن ننبه فى البداية أنه قد عاصر من حكام الدولة الأموية فى الأندلس أربعة أمراء : (محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) و (المنذر بن محمد ٢٧٣ - ٢٧٥ هـ) و (عبد الله بن محمد ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) و (عبد الرحمن الناصر بن محمد ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ)[١] .

والواقع أن الحديث عن نواحى النهضة فى قرطبة من معمار ، وإدارة ، وأبهة ، وغير ذلك يتضاءل عند الحديث عن قرطبة بوصفها موطن ثقافة قوية ، قدر لها أن تؤثر فى العالم المسيحى تأثيراً قويا .

إن قرطبة كانت تعتقد الذروة من ذلك المجد الفكرى الأندلسى . لقد وصلت جامعة قرطبة إلى مرتبة الصدارة ، وتبوأت مكانتها قبل جامعتى القاهرة وبغداد ، وكان أساتذة من الشرق يدعون إلى إلقاء الدروس ، فيها إضافة إلى وجود مدارس كثيرة ، نظام التعليم فيها « بالمجان » و « بمصروفات » .

ووصل مستوى الثقافة إلى حد أن المستشرق الهولندى « دوزى » إستطاع أن يقرر أن كل شخص تقريباً كان يعرف القراءة والكتابة فى الأندلس ، فى عصر كانت أوربا لا تملك فيه غير مبادىء فى المعرفة . هذا إلى أن هذه المبادىء نفسها كانت محتكرة لأقلية من رجال الكنيسة . لقد كانت قرطبة خلية حقيقية تزخر بالعلماء والمشرعين والأطباء والفقهاء والنحاة والأدباء والشعراء .

ومع التسامح دينياً والتشدد عقائديا فإنه كان ينظر إلى العلم والفلسفة على

---

(١) مقدمة محقق كتاب العقد الفريد جـ ١ ص (س) .

أنهما مشكلتان فى الدين ، بيد أنهما تألقا تألقا وضاء ، ففى مدرسة قرطبة كان هناك حماسة شديدة تتمثل فى المجريطى الذى كان تلاميذه يدرسون الرياضيات والفلك والطب والكيمياء ، ويدرسون فى الوقت نفسه : الفلسفة .

أما الجراح الكبير : أبو القاسم الزهراوى ، طبيب عبد الرحمن الثالث ، فقد شرح علم الجراحة واخترع طرائق جديدة فى الجراحة التى إمتد نجاحها فيما وراء حدود أسبانيا الإسلامية بكثير ، وكان الناس من جميع العالم المسيحى يذهبون لإجراء عمليات جراحية فى قرطبة ، لتقدم الطب فى هذه البلاد(١) .

وعن الكتابة والكتاب ، وبالذات كتابة التدوين والتصنيف . فإن هذه الكتابة قد طلع فجرها بعد أن وطد عبد الرحمن الدخل أركان ملكه ، وكثرت الرحلات إلى المشرق للحج واقتباس العلم ، وبذلك نقل العلماء إلى الأندلس أكثر ما صنف فى علوم اللسان والدين . وقد شجع الخلفاء والأمراء الكتاب وبذلوا الأموال فى جمع الكتب ومكافأة المصنفين .

وفى هذا المجال : فإن علم الأدب قد أخذه الأندلسيون عن أدباء المشرق ، وكان لهم فيه كتب عدة من أمهات أصول الأدب : كالأمالى ، والعقد الفريد ، وكتاب النوادر ، والكتاب : ابن بسام صاحب الذخيرة ، وابن فرج الجيانى صاحب الحدائق ، وابن أبى الخصال صاحب سراج الأدب(٢) .

---

(١) أنظر الحضارة العربية لجاك . س . ريسلر ترجمة فهيم عبدون ، ص ١٤٧ - ١٥٩ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة (بدون) .

(٢) راجع تاريخ العرب فى الأندلس - مرجع سابق - - ص ١٥٤ عن مذكرة الأدب العربى بالأندلس للأستاذ السكندرى .

حياته :

ابن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ / ٨٦٠ - ٩٤٠ م) أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب بن حدير بن سالم ، أبو عمر : الأديب الإمام ، صاحب العقد الفريد من أهل قرطبة ، كان جده الأعلى (سالم) مولى لهشام بن عبد الرحمن ابن معاوية .

ولابن عبد ربه أشعار فى الحب نظمها فى شبابه ، ثم أقلع فى آخر عمره عن صبوته ، وأخلص لله فى توبته ، فاعتبر أشعاره التى قالها فى الغزل واللهو ، وعمل على أعاريضها وقوافيها فى الزهد ، وسماها : « للمحصنات »[1] .

شخصيته :

لم يذكر لنا المؤرخون شيئاً عن سيرة ابن عبد ربه ، تدل على خلقه وصفته إلا ما قدمنا من حديث لهوه وصبوته فى شبابه ، ثم توبته وزهده من بعد ، ويمكننا أن نستنبط من دراسة أدبه ، أنه كان غيوراً ، ولوعاً بالمنافسة ، معتداً بنفسه ، ميالا إلى المزاح والفكاهة ، جريئاً على النداء ، يبدو ذلك من شعره ، ومن نقداته وتعقيبه على كثير مما يروى من أخبار العلماء ، وفى العقد كثير من ذلك .

أما صفته الجسدية ، فلا نجد ما يقربها إلى خيالنا إلا قصة أوردها المقرى عن حديث كان بين ابن عبد ربه وأبى محمد يحيى القلفاط الشاعر ، يستفاد منها

---

(١) الأعلام للزركلى جـ ١ (أ ح) ودائرة المعارف الإسلامية مج ١ ومعجم الأدباء لياقوت ، الطبعة الأخيرة الحلبى جـ ٤ ص ٢١١ فما بعدها .

أن ابن عبد ربه كان دميما ، آدر ، قريب الخطو ، يباعد ما بين رجليه ، هزأة [١] .

ثقافته :

يذكر أحدهم أنه كان يقال : لأبي عمر بالعلم جلالة ، وبالأدب رياسة وشهرة مع ديانته وصيانته ، واتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نفاق (رواج) فنسود بعد الخمول ، وأثرى بعد فقر ، وأشير بالتفضيل إليه ، إلا أنه غلب عليه الشعر [٢] .

ويتناول بعضهم هذه المسألة بتفصيل ، فيقول [٣] : كان ابن عبد ربه فقيها ويذكرون من شيوخه ، بقي بن مخلد ، والخشني ، وابن وضاح . ولعل درسه الفقه ، وسيرته كفقيه يفسران لنا ، ما يروى من أنه كانت له ديانة وصيانة .

ولقد درس ابن عبد ربه - فيما يظهر من عقده ومن الأخبار عنه - العلوم المعروفة في ذلك العصر من نحو وعروض وشريعة وتاريخ أدب .

وكان ابن عبد ربه ، قبل كل شيء - أديباً وشاعراً ، وما كتبه في العقد يكفي لإظهار هذا الأمر ، وكانت ثقافته الأدبية ، شرقية كأدباء الأندلس ،

---

(١) مقدمة المحقق لكتاب العقد الفريد ج ١ ص (س ، ع) وانظر ابن عبد ربه العقد الفريد درس ومنتخبات بقلم فؤاد البستاني (جزءان) المطبعة الكاثوليكية بيروت ص (ج ، د)

(٢) أنظر معجم الادباء - مرجع سابق - ج ٤ ص ٢١٥ . وابن عبد ربه وعقده للدكتور جبرائيل جبور ص ٤٠ وما بعدها ، منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٩ م .

(٣) ابن عبد ربه وعقده - مرجع سابق - الصفحة عينها .

فيما ألمعنا إليه آنفاً ، من تماس أدبي كان على أشده بين الأندلسيين وأهل أقطار العالم العربي .

آثاره :

يتساءل أحدهم (١) : هل لابن عبد ربه كتب غير العقد ؟ ونستعرض للإجابة على هذا السؤال ، طرفاً من أقوال الباحثين ، فمن قائل : إن لابن عبد ربه كتاباً غير العقد هو « اللباب في معرفة العلم والآداب » ، ومن قائل : إنه ليس لابن عبد ربه سوى العقد .

كتاب العقد الفريد .

الباعث على تأليفه :

يترجح لدى الباحث ، أن المقصد من تأليف العقد الفريد كان مقصداً علمياً أدبياً ، فإن عبد ربه يقول في مقدمة كتابه (٢) : « فإن أهل كل طبقة ، وجهابذة كل أمة قد تكلموا في الأدب وتفلسفوا في العلوم على كل لسان ، ومع كل زمان وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غايته وبذل مجهوده في اختصار بديع معاني

---

(١) نفسه ص ١٥٣ وانظر ابن عبد ربه لفؤاد البستاني - مرجع سابق - ص (د) وما بعدها .

* اعتمدنا في دراستنا على نسخة معلوماتها المادية كما يلي :-

العقد الفريد تأليف الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي ت ٣٢٨ هـ . بتحقيق محمد سعيد العريان في (٨ أجزاء) المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ط ٢ ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م .

(٢) أنظر العقد الفريد جـ ١ ص ٣ .

المتقدمين ، واختيار جواهر ألفاظ السالفين ، وأكثروا فى ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار ، والمتخير إلى اختيار ...

وقد ألفت هذا الكتاب ، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب . . . فكان جوهر الجواهر ولباب اللباب . . . (راجع النص المختار من العقد) .

أجزاؤه وموضوعاته :

لقد جاء كتاب العقد لابن عبد ربه فى خمسة وعشرين كتاباً ، سماها بأسماء الجواهر ، وأطلق على الكتاب الثالث عشر : « الواسطة » ، كما سمى كل كتابين متقابلين على جانبى الواسطة باسم جوهرة واحدة ، على أنه أضاف إلى إسم كل كتاب بعد كتاب الواسطة لفظة « الثانية » .

وأول جواهره : كتاب اللؤلؤة فى السلطان ، ثم كتاب الفريدة فى الحروب . . . (راجع النص المختار من العقد) .

قيمتـــه :

إن العقد الفريد ، فيما جاء فى تعريف بعضهم له [1] : مجموعة أدبية ضمنها ابن عبد ربه ما رآه حقيقاً بالتدوين من فروع الأدب ، كالخطب والشعر والفصول النثرية ، وأقوال العلماء والحكماء والأدباء فى قواعد العمران ، وسبل الاجتماع ، وأضاف إلى ذلك كثيراً من البحوث المختلفة فى علوم عصره ، المجاورة للأدب بالمعنى المحدود ، والتى كان من الواجب معرفتها على كل من

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، درس ومنتخبات - مرجع سابق - ص (٥)

طمع فى لقب « الأديب » كعلم العروض ، وعلم الألحان ، وعلم الأبدان ، والنتف التاريخية ، مع أخبار العرب الجاهليين وأنسابهم وأيامهم وحوادثهم مع جيرانهم .

وكان من أهم مصادر ابن عبد ربه فى جمع هذا المؤلف ، ما تقدمه من الكتب الأدبية ، وخصوصاً كتاب : « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، وبعض مرويات الأصمعى والشيبانى وغيرهما المتفرقة فى غير كتب الأدب .

على أن هناك من الباحثين (١) من يؤكد على جسامة القيمة التاريخية للعقد ، فيذكر أن فى بعض أبواب العقد فصولا تاريخية لا تجد مثلها فى كتب التاريخ فأخبار زياد والحجاج والطالبيين ، فيها حقائق يعز العثور عليها فى كتاب آخر وناهيك بأيام العرب ، وأعاريض الشعر ، وما هنالك من أخبار الخوارج والأزارقة ، فضلا عن كثير من الأقوال المأثورة من عظماء الملوك ، نقلا عن كتب ضاعت أصولها .

لكن اقوى ظاهرة تبدو فى العقد هى ـ بلا شك ـ مسحته الأدبية .

إن الصبغة الغالبة على أكثر كتب العقد ، هى الصبغة الأدبية ، حتى كتبه التى تبحث فى التاريخ والاجتماع والموسيقى لا تخلو من فوائد أدبية كثيرة .

أجل ! فبالنسبة إلى رواية الشعر وأخبار الشعراء فهناك فى العقد ما لا يقل عن عشرة آلاف بيت من الشعر لأكثر من مائتى شاعر جاهلى وأموى وعباسى . . ناهيك بما ذكره لنفسه من شعر ، ففى العقد أكبر مجموعة من شعره .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان جـ ٢ طبعة جديدة صـ ٢٠٢ .

أما من حيث وصف المجالس الأدبية والخطب والرسائل ، فإن كتاب :

« واسطة » العقد يغص بعيون الخطب ، ويعد - بحق - من خير المصادر لمراجعة بعض خطب المتقدمين ، إضافة إلى الرسائل المتبادلة بين ناس وناس خاصة ما بين علي ومعاوية ، إن صحت هذه الرسائل ففن إنشاء الرسائل الطويلة قد تقدم عصر « عبد الحميد » ومعلمه « سالم » ، ففيها ترسل وإسهاب .

وعن القصص والنوادر والحكايات فإن ما يضمه العقد فى كتابية عن المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين ، وعن الفكاهات والملح يعد من أقدم المجموعات العربية للقصص والنوادر.

وفى مجال النقد الأدبى : فإن فى العقد فصولا فى النقد نقل بعضها عن الأدباء من مثل الشيبانى وغيره ، يجدر بعلماء النقد الوقوف عليها - وأخباراً ونوادر عن الرواة الذين أخذ عنهم كثيراً من أخبار العرب وشعرائهم ، لا تخلو هذه الأخبار والنوادر من تعليقات ونقدات لصاحب العقد .

وعلاوة على ما تقدم فإن فى العقد كتابا هو الجوهرة فى الأمثال . فيه مجموعة كبيرة لأمثال العرب قد رتبت وصنفت وبوبت حسب أقسامها الرئيسة وكتاباً خاصاً عن أعاريض الشعر وعلل القوافى ، يتضمن هذا الكتاب أرجوزة من نظم ابن عبد ربه لا بأس بها من حيث نظم قواعد العروض والمامه بها ... [1] .

---

(١) أما الارجوزة من حيث النسيج الملحمى والقصصى ، فإن بعضهم يعلق عليها قائلا : « بينا نؤمل خيراً بظهور أول شعر قصصى ، ونطمع بمفاخرة الغير بهذه الملحمة نرى أملنا ميتا وطمعنا خائباً ، إزاء خلو هذه المنظومة من تصاوير

أسلوبه :

طبعى أن يتمثل نثر ابن عبد ربه فى كتاب العقد ، وهو - فيما عرفنا - كتاب مختارات نقلت بأصولها - فى مقدمة الكتاب ، وفى فرش كل كتاب ، وفى الجمل والفقرات الصغيرة التى نثرها فى العقد عند تعليقه على خبر أو تعرضه لراو • .

وعلى الرغم من هذا الكم القليل من النثر الخاص بابن عبد ربه فى عقده ، وهو النثر الذى دبجته يراعته ، فان أحد الباحثين قد استطاع أن يعدد طرفا من مزايا ذلك النثر ، لا بل يوازن بينه وبين أعلام كبار فى هذا الفن من أمثال : الجاحظ ، وابن قتيبة ، وأبى الفرج الأصبهانى يقول (١) :

إن إنشاء ابن عبد ربه يمتاز بالوضوح إذا قورن بانشاء الأصفهانى فى أغانيه وبالرقة من حيث اللفظ ، والترتيب من حيث المعنى ، إذا قوبل بنثر الجاحظ . ولعله أشبه بأسلوب ابن قتيبة ولغته . ولم يوفق كل من ابن قتيبة وابن عبد ربه توفيق الجاحظ فى استعمال الجمل المقتضبة الوجيزة ، المتوازنة بعضها مع بعض

= الخيال الفسيح ومولدات الشعور القوى ، وإذا بين أيدينا تاريخاً منظوماً لا ملحمة شعرية » .

انظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ... - مرجع سابق - ص (ى) وطالع الأرجوزة فى العقد حـ ٥ ص ص ٢٢٥ - ٢٤٦ . وتاريخ الادب العربى لعمر فروخ حـ ٤ ص ١٩٨ ، ٢١١ ، دار العلم للملايين بيروت ط أولى ١٩٨٠ م والتوسع انظر ابن عبد ربه وعقده الجبور ص ١٢٠ - ١٢٥ .

• انظر فى تعليقاته على سبيل المثال ، حـ ٢ ص ٢٦٢ ، حـ ٥ ص ٣ .

(١) مقدمة ابن عبد ربه لكتابه العقد الفريد حـ ١ ص ١ - ٤ .

والتى لم يلتفت فيها كثيراً إلى السجع ، وإن امتاز ابن عبد ربه على ابن قتيبة ، إلى حد ما ، فى رقة العبارة وسلاستها ، وقصر العبارات ، واتزانها بعضها مع بعض .

ولقد كان ابن عبد ربه يرغب فى اللفظ السهل ، ويبعد عن التكلف ويميل إلى الإيجاز ، صحيح أنه كان يرى الإطناب موضعا ، ولكنه كان يفضل الإيجاز ، فى الجملة ، عليه (انظر مثلا - فرش كتاب المسجدة فى كلام العرب جـ ٤ ص ٢) .

النص المختار للدراسة فى هذا البحث : مقدمة العقد .

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن

قال أبو عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسى :

الحمد لله الأول بلا ابتداء ، الآخر بلا انتهاء ، المنفرد بقدرته ، المتعالى فى سلطانه ، الذى لا تحويه الجهات ، ولا تنعته الصفات ولا تدركه العيون ، ولا تبلغه الظنون ، البادىء بالإحسان العائد بالإمتنان ، الدال على بقائه بفناء خلقه ، وعلى قدرته بعجز كل شىء سواه ، المغتفر إساءة المذنب بعفوه ، وجهل المسىء بحلمه الذى جعل معرفته اضطراراً وعبادته اختياراً ، وخلق الخلق من بين ناطق معترف بوحدانيته ، وصامت متخشع لربوبيته ، لايخرج شىء عن قدرته ، ولا يعزب عن رؤيته ، الذى قرن بالفضل رحمته ، وبالعدل عذابه ، والناس مدينون بين فضله وعذابه ، آذنون بالزوال ، آخذون فى الإنتقال من دار بلاء إلى دار جزاء .

أحمده على حلمه بعد علمه ، وعلى عفوه بعد قدرته ، فانه رضى الحمد شكراً لجزيل نعمائه ، وجعله مفتاح رحمته ، وكفاء نعمته وآخر دعوى أهل جنته بقوله عز وجل : « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

وصلى الله على نبيه الكريم الشافع المقرب ، الذى بعث آخراً ، واصطفى أولا ، وجعلنا من أهل طاعته وعتقاء شفاعته . وبعد :

فان أهل كل طبقة وجهابذة كل أمة قد تكلموا فى الأدب وتفلسفوا فى العلوم على كل لسان ومع كل زمان وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غايته وبذل مجهوده فى اختصار بديع معانى المتقدمين ، واختيار جواهر ألفاظ السالفين وأكثروا فى ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار والمتخير إلى اختيار ، ثم إنى رأيت آخر كل طبقة وواضعى كل حكمة ومؤلفى كل أدب أعذب ألفاظاً وأسهل بنية وأحكم مذهبا ، وأوضح طريقة :

من الأول ، لأنه ناقض متعقب والأول بادىء متقدم . فلينظر الناظر إلى الأوضاع المحكمة والكتب المترجمة بعين إنصاف ، ثم يجعل عقله حكماً عادلا قاطعاً ، فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع طيبة المنبت ، زكية التربة يانعة الثمرة . فمن أخذ بنصيبه منها كان على إرث من النبوة ومنهاج من الحكمة لا يستوحش صاحبه ولا يضل من تمسك به .

وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الأدب ومحصول جوامع البيان فكان جوهر الجواهر ولباب اللباب وإن مالى فيه هو تأليف الإختيار وحسن الاختصار وفرش لدرر كل كتاب وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ومأثور عن الحكماء والأدباء . واختيار الكلام أصعب من تأليفه وقد قالوا : اختيار الرجل وافد عقله .

وقال الشاعر :

قد عرفناك باختيارك إذ كان ن دليلا على اللبيب اختياره

وقال أفلاطون : عقول الناس مدونة فى أطراف أقلامهم ، وظاهرة فى حسن اختيارهم : فتطلبت نظائر الكلام وأشكال المعانى وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال ، ثم قرنت كل جنس منها إلى جنسه فجعلته باباً على حدته ، ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ونظيره من كل باب . وقصدت من جملة الأخبار وفنون الآثار إلى أشرفها جوهراً ، وأظهرها رونقاً ، وألطفها معنى ، وأجزلها لفظاً وأحسنها ديباجة وأكثرها طلاوة ، وحلاوة آخذاً بقول الله تبارك وتعالى (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه).

وقال يحيى بن خالد : الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ، ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون .

وقال ابن سيرين : العلم أكثر من أن يحاط به ، فخذوا من كل شىء أحسنه وفيما بين ذلك سقطات الرأى وزلل القول . ولكل عالم هفوة ، ولكل صارم نبوة . . . .

وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار ، طلباً للاستخفاف والإيجاز ، وهرباً من التثقيل والتطويل ، لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر ، لا ينفعها الإسناد باتصاله ولا يضرها ما حذف منها . وقد كان بعضهم يحذف إسناد الحديث من سنة متبعة وشريعة مفروضة ، فكيف لا يحذفه من نادرة شاردة ومثل سائر وخبر مستظرف . .

وقد نظرت فى بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة فى فنون الأخبار ، ولا جامعة لجل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لأكثر

المعانى التى تجرى على أفواه العامة والخاصة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة . وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار فى معانيها وتوافقه فى مذاهبها ، وقرنت بها غرائب من شعرى ليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور وسميته كتاب « العقد الفريد » لما فيه من مختلف جواهر الكلام ، مع دقة المسلك وحسن النظام .

وجزأته على خمسة وعشرين كتاباً كل كتاب منها جزءان ، فتلك خمسون جزءاً فى خمسة وعشرين كتاباً ، قد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد

فأولها كتاب اللؤلؤة فى السلطان . ثم كتاب الفريدة فى الحروب ومدار أمرها . ثم كتاب الزبرجدة فى الأجواد والأصفاد . ثم كتاب الجمانة فى الوفود . ثم كتاب المرجانة فى مخاطبة الملوك . ثم كتاب الياقوتة فى العلم والأدب ثم كتاب الجوهرة فى الأمثال . ثم كتاب الزمردة فى المواعظ والزهد ثم كتاب الدرة فى التعازى والمراثى . ثم كتاب اليتيمة فى النسب وفضائل العرب . ثم كتاب العسجدة فى كلام الأعراب ، ثم كتاب المجنبة فى الأجوبة . ثم كتاب الواسطة فى الخطب . ثم كتاب المجنبة الثانية فى التوقيعات والفصول وأخبار الكتبة . ثم كتاب السجدة الثانية فى الخلفاء وتواريخهم وأيامهم . ثم كتاب اليتيمة الثانية فى أخبار زياد والحجاج والطالبيين والعراكة . ثم كتاب الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعهم ثم كتاب الزمردة الثانية فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه . ثم كتاب الجوهرة الثانية فى أعاريض الشعر وعلل القوافى . ثم كتاب الياقوتة الثانية فى علم الألحان واختلاف الناس فيه . ثم كتاب المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن ثم كتاب الجمانة

الثانية فى المتنبئين والمغرورين والبخلاء والطفيليين . ثم كتاب الزبرجدة الثانية فى بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان . ثم كتاب الفريدة الثانية فى الطعام والشراب . ثم كتاب اللؤلؤة الثانية فى التحف والهدايا والفكاهات والملح » . . .

دراسة النص مضمونياً :

واضح أن ابن عبد ربه يعالج فى مقدمته نقاطاً عدة تتمثل فيما يلى : -

- بيان المقصد من تأليف الكتاب ومدى الحاجة إليه . « فإن أهل كل طبقة ، وجهابذة كل أمة قد تكلموا فى الأدب . . . » .

- طريقة الكاتب فى تأليف الكتاب والدفاع عن طريقته ، والإلماع إلى إسهامه بلاده فى النهضة الأدبية « وقد ألفت هذا الكتاب . . »

- إسم الكتاب وتقسيمه : « وسميته كتاب العقد ، لما فيه من مختلف جواهر الكلام . . . » .

ومن خلال تلك النقاط التى اشتملت عليها مقدمة ابن عبد ربه لكتابه : « العقد الفريد » تبرز لنا أهم خصائصها المضمونية فيما يلى :-

١ - إحكام خطة كتابة المقدمة : لقد وضع ابن عبد ربه خطة محكمة لكتابه مقدمة كتاب العقد الفريد . ومن ثم فإنه لم يقع فى التشعب والتشتت الذى كان من سمات بعض الكتاب . إن نقطة فى تلك المقدمة تسلم إلى نقطة وهكذا . . .

واللافت النظر ، الإطناب فى « افتتاحية » المقدمة ، حيث عز الربوبية

وذل العبودية . ولعل السر فى ذلك ، محاولة التأكيد على الندم من جراء ما فرط فى جنب الله ، أيام شبابه ، يؤكد هذا تأليفه العقد ـ على ما ذكروا[1] ـ فى أخريات حياته ، وقد بدأ يراجع نفسه ، وانتهى ـ فيما عرفنا ـ إلى نحو ما نظم فى أساليب الغزل والتشبيب ونظمه أبياتاً فى الزهد على بحور غزله وقوافيه ، راجياً أن يمحص ما كان سلف من بوادر شبابه ، فسميت أشعاره هذه ، بالممحصات ، فلا يبعد ـ إذن ـ أن تكون الافتتاحية ، تلك المطولة ، محضة نثرية تضاف إلى الممحصات الشعرية .

٢ ـ دقة العالم ومزاج الأديب : تبدو الدقة فى ذلك التصميم الرائع لمقدمة كتابه ، بما تنطوى عليه من عناصر متسلسلة ، وفى تصريحه الدال على تواضع معروف عن العلماء الأجلاء ، وذلك فى قوله : « وإن ما لى فيه هو تأليف الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش الدرر كل كتاب وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء . . . » .

أما مزاج الأديب فيتمثل فى ميله إلى الاختيار ، ودفاعه الحار عن هذا الميل ، ونحن نعلم أن المبدأ الأساسى فى الفن عموماً هو الاختيار والانتخاب[2] .

والمهم ـ فيما قرأت ـ اجتياز صعوبة الاختيار فى مجموعة تحديات الملكات لدى الفنان ، من اختيار ، وترتيب ، وغيرها . كذلك يتجلى مزاج الأديب ،

---

(١) راجع مقدمة المحقق لكتاب العقد الفريد ، ص (ع)

(٢) انظر فصل جمال الطبيعة وجمال الفن من كتاب : النقد الجمالى وأثره فى النقد العربى لروز غريب ص ٢٩ وما بعدها .

فى تأنق صاحبه فى تقسيمه وتسمية أبوابه ، فسماها بأسماء الجواهر الكريمة ، تطبيقاً لإسم الكتاب : « العقد الفريد » .

دراسة النص شكلياً .

يتجلى لنا أسلوب ابن عبد ربه - عبر المقدمة - كما ينعته بعضهم قائلا : إن أسلوب الرجل كان موجزا ، واضحاً ، قريب المعانى ، ترتبط بعض جمله ببعضها الآخر ارتباطاً منطقياً (١) .

ويؤكد بعضهم هذه الخصائص عن طريق الموازنة بينه وبين أمثاله من الأدباء الظرفاء فى العصر العباسى ، الذين تركوا فى مؤلفاتهم روحا حية لطيفة ، كانت تطرد الضجر الذى تبعثه فى النفوس ، تصانيف اللغويين المملة ، وجاميع العلماء الجافة ، يقول : إن عبد ربه يقصر عن إيجاز الأصفهانى ، لكنه يفوقه وضوحا ، وهو أبعد من أن يدرك فكاهة الجاحظ واسترسال إنشائه ، ولكنه يسمو عليه بترتيب أفكاره ، وحسن انتقالاته فيكون والحالة هذه ، أوفر من زميليه علما وتعقلا ، وهما أكثر منه تفننا و « أدبا » (٢) .

وعلى أية حال فإن ميزات أسلوبه الكتابى - فيما دلت عليه المقدمة -

---

(١) تاريخ الأدب العربى لعمر فروخ جـ ٤ ص ٣١٣ .

(٢) أنظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد درس ومنتخبات - مرجع سابق . ص (ح ، ظ ، ى) .

بوضوح تشمل : الإيجاز فى الكلام ، وسلامته من الفضول ، وبراءته من التعقيد ، وبعده عن التكليف ، واتزان عبارته وحسن سبكها ، وعدم استعماله الغريب من المفردات ، فهو فى نثره ، كما هو فى شعره ، رقيق اللفظ ، جزله ، واضح التعبير سائغ الفهم (١) .

د/ عمر أحمد حسين صالح شرف الدين
مدرس الأدب والنقد فى كلية اللغة العربية
جامعـ ـة الأزهر بأسيوط

---

(٣) التوسع أنظر ابن عبد ربه وعقده - مرجع سابق ص ١٦١ .